



# إغراء المال

ارتبطت العملات الجديدة على مر التاريخ بصفات روحانية،  
والبيتكوين ليست باستثناء عن ذلك

هارولد جيمس



## تمثل

النقود عنصرا أساسيا في العلاقات البشرية. فنحن نتبادلها ولكن يصعب علينا أن نفسر من أين أتت أو لماذا يقبلها الآخرون. ونشعر بالضيق إن لم يقبلوها. وتؤدي الاختلالات النقدية – التضخم أو الانكماش – إلى اضطرابات اجتماعية واسعة النطاق. وتلوح التكنولوجيات الجديدة من وقت إلى آخر بفرص مغرية وتحويلية، غير أنها تحمل معها كذلك شكوكا عميقة بشأن العلاقات التي ينطوي عليها التبادل النقدي. وتثور الشكوك في لحظات الابتكار، عندما تكون المخاطر المرتبطة بالنقود في أوجها.

ويقوم تحدي العصر الحالي الناجم عن عملة البيتكوين، كعملة بديلة محتملة، على الفكرة الجذابة في ظاهرها التي تفيد بأنها تستند إلى تكنولوجيا أكثر تفوقا بطبيعتها وأكثر أمنا لسداد المدفوعات. حيث توفر تكنولوجيا دفاتر الحسابات الرقمية الموزعة، أو سلاسل مجموعات البيانات «بلوك تشين»، سبيلا لتحقيق الأمن التام لأي عملية دون الحاجة لسلطة مركزية أو بنك مركزي يقوم بدور الحكم. وهي تعد بأن تحل محل العملة الإلكترونية في الحسابات المصرفية التقليدية على غرار التحويلات الإلكترونية عندما حلت محل الأوراق النقدية، والأوراق النقدية عندما خلفت الذهب والفضة. كما أنها تنطوي على احتمال حدوث تحول هائل تنفصم فيه الصلة بين النقود والدولة. ويحتفي دعاة التحرر المالي بهذا الابتكار باعتباره طريقة لتقليص قوة الدولة؛ فتنظر إليه دول منبوضة، مثل فنزويلا وكوريا الشمالية، باعتباره سبيلا لإقامة نظام بديل للنظام السياسي الدولي الحالي.

ودرجت كتب الاقتصاد على الإشارة إلى ثلاث وظائف للنقود باعتبارها: وحدة للحساب، ومخزنا للقيمة، ووسيلة للدفع. غير أن النقود الحالية لا تستوفي مطلقا جميع هذه الوظائف بشكل تام. وبالفعل، في عالم تعني فيه التكنولوجيا تغيير الأسعار النسبية، يصبح من المستحيل منطقيا الجمع بين أن تكون مخزنا آمنا للقيمة حقا وأن توفر مقياسا للأسعار التي تتحرك في اتجاهات مختلفة، مما يؤثر على السلع التي تكتسي أهمية مختلفة لمجموعات مختلفة من الناس. ومع تزايد عدم اليقين وعدم الاستقرار على المستوى الاقتصادي، يزداد الطلب على ابتكارات العملة، وهي عملية دائما ما تتسم بالغموض. ونظرا للوظيفة التي تؤديها النقود كوسيلة للدفع، فتبدو وكأنها تحول شكل السلع بطريقة أقرب إلى السحر. وبدا هذا السحر في البداية إما فعلا إلهيا أو شيطانيا. ويسلط الابتكار الضوء على الحاجة لسرد حكايات عن أصل النقود.

وكانت النقود في معظم الأحيان تقريبا تعبيراً عن سيادة الدولة. وكانت العملات الخاصة نادرة للغاية. أما النقود المعدنية فكانت تحمل رمز الدولة. وكانت بومة منيرفا، رمز أثينا، أحد أول أشكال التعبير عن هوية الدولة. وقد ثار في البداية بعض اللغط حول ما إذا كان رمز السيادة يمثل في الوقت نفسه رمزا إلهيا: فهل كان المحفور على العملة المعدنية هو رأس فيليب المقدوني أم الإسكندر أم هرقل؟ ولعب الأباطرة الرومان الذين حفروا رؤوسهم الإلهية على العملات المعدنية على نفس اللغط. وحتى الآن، لا تزال العملات البريطانية تحمل كلمات محفورة تربط بين النظام الملكي والله.

وخلال الجزء الأكبر من الألفيتين السابقتين، وضعت النقود على نحو غامض ما بين ما لها من قيمة جوهرية وضمانة الدولة لقبولها كوسيلة للدفع. أما نقود السلع، التي عادة ما كانت معدنية، فقد اتسمت بجاذبية مبدئية واضحة لما لها من قيمة جوهرية شكلت أساسا تستند إليه، غير أنها لم تكن ملائمة كوسيلة عملية للدفع. فالعملات الذهبية لم تكن مناسبة للتعاملات اليومية الصغيرة، في حين كانت العملات النحاسية تمثل إشكالية واضحة فيما يتعلق بتسوية الحسابات الكبيرة.

وبالإضافة إلى ذلك، اتسمت العملات المعدنية بكونها عرضة للتقلبات الاعتبارية التي تحركها احتمالات اكتشاف معادن جديدة. فاكتشاف الذهب في كاليفورنيا في أربعينات القرن التاسع عشر، واكتشافات المناجم التي تلتها في ألاسكا وأستراليا وجنوب أفريقيا والتي افتتحت في تسعينات القرن التاسع عشر، أسفرت عن تضخم حميد ومعتدل الأثر؛ في حين أدى غياب الاكتشافات الجديدة في مطلع القرن التاسع عشر، ثم مرة أخرى في سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر، إلى الانكماش والكساد.

وبنهاية القرن التاسع عشر، بدأ الاقتصاديون يفكرون في الاعتماد على عملات ورقية غير قابلة للتحويل – أي غير مربوطة بمعادن ثمينة أو بسلع أخرى – لتنظيمها الدولة باعتبار أنها يمكن أن تمثل مخزنا أكثر ثباتا للقيمة. وبذلك يمكن لأي سلطة حكيمة أن تستخدم نوعا جديدا من النقود للاحتفاظ بقيمة النقود ثابتة تماما.

إلا أن مبتكري العملات في القرن العشرين كان عليهم أن يصارعوا تاريخا مدمرا سبق ظهور العملات الورقية غير القابلة للتحويل. ففي مطلع القرن الثامن عشر، وفي أعقاب التركة المالية المدمرة التي خلفتها حروب لويس الرابع عشر، أسس جون لو، رجل المال الاسكتلندي، نظاما لعملة تدعمها أنشطة إحدى الشركات العامة. فكانت أسهم الشركة تباع على أساس نظام هرمي، فترتفع قيمة الأسهم الأصلية بوتيرة





المدانين في سيبيريا، بيت الموتى، تجسيدا لعبارة «الحرية المسكوكة». وكان دوستوفسكي يتخيل بالفعل قيمة العملة بالنسبة لشخص مسجون لم يكن بإمكانه أن يصرف النقود ليحصل على موارد حقيقية ولكن كان بإمكانه أن يحلم بتلك الحرية.

ولعل ما يضيفي جاذبية على البيتكوين هو ما تدعيه من أنها تجمع بين إخفاء الهوية وعدم إمكانية التعقب وبين الأمن. وقد نشأت البيتكوين وبقا نشبت الأزمة المالية العالمية في ٢٠٠٨-٢٠٠٩. ومن غير الواضح إن كان مؤسس هذه العملية المزعوم، المشفّر المعروف باسم ساتوشي ناكاموتا، شخصا حقيقيا. ومن هذا المنطلق، تتناسب البيتكوين تماما

## استغرق الأمر وقتا طويلا لكي تتعلم الحكومات كيفية التعامل مع النقود بشكل سليم.

مع النمط التاريخي للعملة الشيطانية بغموض أصلها وعدم اليقين بشأن ما إذا كانت الثقة فيها لها ما يبررها. وتبدو البيتكوين كنسخة القرن الحادي والعشرين من الذهب. فيمكن إنشاؤها أو التنقيب عنها بعد جهد. وقد عمد منشؤها بعقريّة إلى تشبيهها بالذهب. فكما كان سعر الذهب يعتمد على الجهد البشري الهائل الذي يستلزمه استخراجها بعد حفر كميات هائلة من الأتربة في أماكن نائية، تستلزم البيتكوين قدرا كبيرا من القوة الحاسوبية التي تحركها طاقة رخيصة السعر في أماكن نائية في آسيا أو في آيسلندا. وتمثل تحولا جوهريا في النظرة للقيمة الأساسية. وشجعت العملات المعدنية في عالم ما قبل الحداثة على صوغ نظرية قيمة العمل: حيث تنتج القيمة عندما يضيف البشر عملهم إلى الطبيعة. وتعني تكنولوجيا سلاسل مجموعات البيانات «بلوك تشين» أن القيمة تعكس مزيجا من الطاقة المختزنة والذكاء، وأي منهما ليس بشريا. وقد تشير إلى عصر جديد يمكن فيه إنشاء معظم القيمة أو كلها في نهاية المطاف عن طريق التفاعل غير البشري بين الآلة والطاقة. ومن غير المستغرب أن الخوف من عدم الاستقرار — وربط النقود الجديدة بخصائص شيطانية — ظهر على السطح من جديد. <sup>FD</sup>

هارولد جيمس هو أستاذ التاريخ والشؤون الدولية في جامعة برينستون ومؤرخ صندوق النقد الدولي.

سريعة، وهو ما بدا أنه يؤدي إلى توليد أموال جديدة. وأطلق هذا النظام مستوى هائلا من النشاط، مع ارتفاع المضاربة على الأسهم والأراضي بشكل جنوني، قبل أن ينهار في حالة من الفوضى والارتباك.

وخلال الثورة الفرنسية، كرر التاريخ نفسه، عندما صدرت أوراق تابعة للدولة (*assignats*) بضمان الأراضي المصادرة، وعندما أفضى الإفراط في الإصدار إلى نوبة تضخم جديدة. واستنادا إلى تقارير المهاجرين الفرنسيين، أضاف الشاعر الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته جزءا إلى مسرحيته فاوست ربط فيها بين استحداث النقود ووعود الشيطان. فيقنع إبليس مفستوفيليس الإمبراطور بإصدار أوراق مالية موحا أن السحر الجمالي للمنهج الجديد للضمان النقدي يكمن في الطبيعة غير المحدودة لإصدار الأوراق، وهو ما مكّن من ظهور مستوى جديد من الثقة في قدرات الدولة: «سيتق العقلاء، عندما ينتهون من دراسة الأمر، ثقة لا نهائية في ما هو لا نهائي.» وعليه، فقد نبغ الابتكار في الشؤون النقدية من الشيطان.

وجاء معظم القرن العشرين زاخرا بتجارب مدمرة بشأن سوء إدارة العملات: التضخم أثناء الحرب وفي أعقابها — وفي خضم الاضطرابات الاجتماعية في ستينات وسبعينات القرن الماضي — والانكماش الناجم عن الكساد الكبير. وقد استغرق الأمر وقتا طويلا لكي تتعلم الحكومات كيفية التعامل مع النقود بشكل سليم.

وبنهاية القرن العشرين، أسهم أخيرا تحسن صنع السياسات النقدية في معظم البلدان في حل مشكلة ثبات الأسعار. إلا أن ما بدت جنة نقدية ما كان منها إلا أن أبرزت مشكلات جديدة لم تكن ظاهرة من قبل. فبدت وظيفة تخزين القيمة أمرا إشكاليا. فهل كان من المناسب قياس ثبات الأسعار من حيث أسعار المستهلكين عند حدوث تضخم هائل في بعض أسعار الأصول، أو في أسواق المال، أو في العقارات؟

ومن الناحية العملية، أدى الاستعاضة عن العملات الورقية بتحويلات إلكترونية سواء على مستوى تجارة الجملة أو لأغراض فرادى المستهلكين الذين يحملون بطاقات ائتمان أو بطاقات خصم إلى ظهور سجال جديد. فالنقود الإلكترونية ملائمة لإجراء التحويلات، حتى عبر مسافات بعيدة. ولكن من السهل تعقبها. ويأتي جزء من الطلب على التكنولوجيات الجديدة من الشواغل إزاء الخصوصية: الرغبة في العودة إلى إخفاء الهوية في العمليات النقدية. وأطلقت حملات قوية، في كثير من البلدان، للحفاظ على العملات المعدنية والأوراق النقدية. وتمثل النقود الفعلية ما أشار إليه فيودور دوستوفسكي في روايته شبه الذاتية عن حياة